عون الولي الحميد بشرح كتاب التوحيد
للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى

الشارح..
الشيخ عصام بن عبد المنعم المري حفظه الله

٤٨- باب قول الله تعالى

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

قال مجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به .

وقال ابن عباس : يريد من عندي.

وقوله: (إنما أوتيته على علم عندي) قال قتادة : على علم مني بوجوه المكاسب.

وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل ؛ وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف.

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به.

قال: فمسحه فذهب عنه قذره، فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا.

قال: فأي المال أحب إليك؟ قال الإبل أو البقر - شك إسحاق - فأعطي ناقة عشراء وقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال شعر حسن ، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به.

فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعرا حسنا.

فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل. فأعطي بقرة حاملا.

قال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس فمسحه فرد الله إليه بصره .

قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاة والدا فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلوغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ؛ أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ، بعيرا أتبلغ به في سفري.

فقال: الحقوق كثيرة .

فقال: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله عز وجل المال؟
فقال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر.
فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته ؛ فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا .
فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.
قال وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري.
فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله. فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك».

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.
الثانية: ما معنى: (لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي).
الثالثة: ما معنى قوله: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي).
الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

الشرح:

ينتقل المؤلف إلى عبادة جديدة يغفل عنها كثير من الناس، عبادة الشكر شكر النعم، إذا سألت نفسك كم من المرات راجعت نفسك في هذه العبادة، كم من المرات سألت نفسك، هل أنت مع الشاكرين أم أنت مع الغافلين أم أنت مع المنكرين أو الجاحدين.

إذا سألت نفسك هل قمت بهذه العبادة ؛ حقِّ الشكر، وهل انتهيت عن ضدها، ضد الشكران الكفران والجحود، وهل علمت ثواب الشاكرين وعاقبة الجاحدين وعاقبة الكافرين بالنعم، وهل علمت أن الشكر يزيد النعم والكفران يبيد النعم ويجلب النقم، هل علمت أن الشكر غاية ما يريده الرب جل وعلا من عباده الصالحين وأخص ما وصف به عباده المرسلين كما سيأتي.

أظن أن الكثير سيتوقف مع نفسه تجاه هذه العبادة، وقد نجد الكثير في غفلة عنها، قد نجد الكثير في غفلة عن حق الله جل وعلا بوجوب شكره وحمده سبحانه وتعالى، حمده على أفعاله العظيمة وصفاته الجميلة وأسمائه الحسنى

وعلى جزائه وقدره وعلى شكره على ما أنعم علينا من النعم التي لا تعد ولا تحصى، النعم التي أنعم علينا بها لا تعد ولا تحصى.
جاء رجل مرة إلى أحد العلماء واسمه يونس بن عبيد البصري، إمام كبير من الثقات المعروفين شكا له الحاجة والضيق، يشكو له الضيق والشدة، فقال له هذه الإمام: هل ترضى ببصرك مئة ألف؟ يعني نعطيك مئة ألف ونأخذ البصر، قال: لا، قال: هل ترضى بيديك مئة ألف أو مئتي ألف؟ قال: لا، قال: هل ترضى برجيلك مئتي ألف؟ قال: لا، يعني نأخذ البصر ونعطيك مئة ألف، أو نأخذ اليدين ونعطيك مئة ألف أو مئتي ألف، نأخذ السمع ونعطيك مئة ألف، قال: لا، وعدد عليه النعم التي هو فيها، فقال: اذهب فأنت لديك مئات أو مئين الألوف، يعني أنت عندك مئات الألوف وتأتي تشكو الفقر والحاجة.

وكما قال من قال من السلف: الصحةُ المُلكُ. إذا الله جل وعلا عافاك في صحتك، فأنت ملك.
كثير من الناس بلا شك يغفل عن هذه النعمة وعن شكر هذه النعم العظيمة، والناس في شكرها نوعان: الشاكرون نوعان:
نوع يشكر على المطعم والمشرب والقوت والملبس، وهذه درجة من درجات الشكر، لكن الدرجة الأعلى من هذا أن الإنسان يشكر على نعمة التوحيد ونعمة الإيمان وقوت القلوب والأرواح، الوحي والقرآن العظيم والسنة المطهرة، الإنسان يشكر الله جل وعلا على أن جعله من أهل هذه النعمة، من أهل التوحيد ومن أهل الإيمان ومن أهل السنة.
إذًا الدرجة التي عليها كثير من العوام إذا قلنا بأنهم يشكرون فهم يشكرون مطعمهم وملبسهم ومشربهم، وهذه درجة لا بد منها لأن الله جل وعلا كما جاء في الحديث الصحيح يحب من العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها وأن يشرب الشربة فيحمده عليها. هذه لا بد منها، لكن الأعلى من هذا والأكمل أن الإنسان يشكر الله جل وعلا على النعمة الكبرى، نعمة التوحيد والإيمان والقرآن، فأنت قد أكرمك الله جل وعلا بأن جعلك من أهلها وصرف عنها الكثير والكثير من بني آدم.
هذا البحث بحث الشكر شكر النعم وضد الشكر وهو كفران النعم بحث مهم، وبحثه ابن القيم في عدة كتب منها كتاب طريق الهجرتين، وسيأتي إن شاء الله بعض كلامه ، وأيضًا في مدارج السالكين شرح منازل السائرين للهروي بحث مهم ينبغي للإنسان بعد أن يسمعه ويعلم بعض معالمه أن يقف مع نفسه

وقفة ليلحقها بالشاكرين، فإن الشكر أعلى منازل السائرين، كما قال رحمه الله تعالى في المدراج: الشكر أعلى منازل السائرين وأعلى المنازل، لماذا، لماذا كان الشكر أعلى المنازل؟ ذكر رحمه الله تعالى عدة أسباب وإن شئت قلت عدة فضائل في المدارج:

الأول: أن الله جل وعلا أمر به عباده، فقال تعالى (واشكروا لي ولا تكفرون).

والأمر الثاني: أن الله جل وعلا نهى عن ضده وهو الكفران، فقال: (ولا تكفرون).

إذًا الأمر الأول أن الله جل وعلا أمر به، والثاني: أن الله جل وعلا نهى عن ضده.

الثالث: أن الله جل وعلا أثنى على أهله ومن هؤلاء إبراهيم عليه السلام (إن إبراهيم كان أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين. شاكرًا لأنعمه) أثنى على خليله إبراهيم عليه السلام أنه كان شاكرًا لأنعمه، أثنى به على خاصة عباده، ووصف به خواص خلقه، فقال عن نوح عليه السلام: (إنه كان عبدًا شكورًا). وصف به خواص خلقه.

خامسًا: أن الله جل وعلا جعله غاية خلقه وأمره، قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) لماذا؟ (لعلكم تشكرون) فما جُعل لك السمع والبصر والفؤاد وعُلمت ما تعلمت وسُخر لك ما سخر إلا للشكر (لعلكم تشكرون).

سادسًا: أن الله جل وعلا وعد أهله بأحسن الجزاء، وعد أهل الشكر والشاكرين بأحسن الجزاء، قال تعالى (وسيجزي الله الشاكرين).

سابعًا: أن الله جل وعلا جعله سببًا للمزيد من فضله، فقال تعالى (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) إذا أردت الزيادة في الخير، في الصحة، في المال، في العافية، فالزم الشكر، الزم الشكر، إذا أردت الزيادة الدائمة المضطردة المستمرة فيما أنت فيه من الخير فالزم الشكر، لأن وعد الله جل وعلا لا يتخلف (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم).

وبهذا أيضًا جعل الشكر حارسًا وحافظًا للنعمة، بنص هذه الآية (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم) فبالشكر تحفظ النعم.

وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته فقال: (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) في سورة لقمان، إذًا المتبعون لهذه الآيات الصابرون الشاكرون.

وانظر إلى الملحظ الجميل الذي ألف ابن القيم من أجله رسالته : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين

عدة الصابرين : يعني ما وعد الله جل وعلا به الصابرين، وذخيرة الشاكرين، فجمع بينهما، لأنه جاء عن عدد من السلف منهم ابن مسعود بأن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، وقد ورد هذا في حديث ضعيف مرفوع لكنه مروي عن ابن مسعود وعن غيره أن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، من أجل ذلك ألف ابن القيم كتابه المذكور آنفًا. هذه التاسعة.

العاشرة: أن الله جل وعلا اشتق للشاكرين اسمًا من أسمائه فإنه سبحانه وتعالى هو الشكور، وجعل من يشكر اسمه الشاكر

بل يقول ابن القيم: وهو يوصل الشكور إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكورًا، وهذه لطيفة نقف عندها قليلاً، هو جل وعلا من كرمه ومنته يوصل العبد الشاكر إلى مشكوره، إلى شكر الله جل وعلا على ما يحبه سبحانه وتعالى، وبعد ذلك فالرب جل وعلا يجزي هذا العبد بأن يشكره على هذا الشكر الذي قام به، وهذا العمل الذي شكر به النعمة، كما قال تعالى (إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا) من كرم الله جل وعلا أنه يوفقك للشكر والعمل بالشكر، سواءً كان كما سنذكر بالقلب أو باللسان أو بالجوارح، وبعد أن تجتهد في الشكر فإن الله سبحانه وتعالى يشكرك على ما قمت به، فإنه أكرمك بأن كنت من الشاكرين ثم قبل شكرك بعد ذلك (إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا) هذا من كرم الله سبحانه وتعالى، فقد اشتق للشاكرين اسمًا من اسمه سبحانه وتعالى، فهو الشاكر الشكور ويوفق الشاكر للشكر ثم يقبله منه كرمًا منه ومنة سبحانه وتعالى.

الحادي عشر: أن الشكر هو غاية الرب من عبده، كما قال تعالى (وإن تشكروا يرضه لكم).

الأخير فيما ذكره ابن القيم: الثاني عشر: أن أهله هم القليل، كما سبق ،(وقليل من عبادي الشكور) لوجود الغفلة، أو وجود النكران أو الجحود، كما سنرى في أدلة هذا الباب

فليكن العبد الحريص على نجاته والحريص على رضى ربه جل وعلا من أولئك القليل.

وقد كان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تتورم قدماه، فتكلمه عائشة رضي الله عنها في ذلك، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيقول: "أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا" صلى الله عليه وسلم.

وقد وصى خواص أصحابه بهذه العبادة العظيمة فقال لمعاذ رضي الله عنه : يا معاذ إني أحبك، ثم قال له: لا تدعن أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

أما في طريق الهجرتين فيعرف ابن القيم الشكر يقول:
أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، وهذه كلمة عظيمة جدًّا، يعني ماذا؟ قد يعترف الإنسان بالنعمة لكن يقول هذه النعمة أنا أستحقها، هذه نعمة فعلاً أنعم الله بها علي، لكن أنا أهل لهذه النعمة وأستحق هذه النعمة، لشرفي، أو لوجاهتي، أو لنسبي، أو لمالي، أو لما معي من الشهادات وغير ذلك، فهذا اعترف بالنعمة لكن لم يَذِل لله جل وعلا بها ولم يحب المولي لهذه النعمة ولم يخضع للرب جل وعلا بهذه النعمة، لا، بالعكس، هو تكبر بها، هو أقر بالنعمة، لكن على غير وجه الشكر، يظن أنه يستحقها، استقلالاً.
أو آخر لا يعترف بالنعمة أصلاً، نعم الله جل وعلا عليه تترى، في الصحة والمال والولد وغير ذلك لكن دائمًا تسأله يقول هو في نقص وهو في قلة ولا يعترف أنه في نعمة، كلما تسأله كيف حالك يا فلان وأخبرنا عن أحوالك يقول الشكوى لله سبحانه وتعالى، لا يقول لك مرة : الحمد لله والشكر لله نحن في نعم لا تعد ولا تحصى، لا، دائمًا يشكو ودائمًا يشعر نفسه بأنه في جانب والنعم في جانب آخر، فهذا غير مقر أصلاً بالنعمة وغير معترف بها.
إذًا كما يقول ابن القيم أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة.
ثم يقول: فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، يعني شخصا لا يراجع نفسه يرى هل هو في نعمة أم لا، طبعًا كل مخلوق في نعم لا تعد ولا تحصى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) مهما كان حال هذا المخلوق.

فالحالة الأولى من لم يعرف النعمة أصلا، غير معترف أنه في نعمة، وجاهل بها فهذا لا يشكرها ابتداءً
الثانية: من عرفها ولكن لم يعرف المنعم بها، لم يقل هذه النعمة من الله سبحانه وتعالى، لا، يقول هذه النعمة باجتهادي وجهدي وأنا إنسان خبير وعندي معرفة بإدارة الأموال والتجارة والمكاسب وكيف أكسب من هنا وهناك، هذا يعرف أنه عنده نعمة لكن لم يقر بها للمنعم كما سيأتي في الكلام على قارون

عندما قال: (إنما أوتيته على علم عندي) على علم عندي بوجوه المكاسب أو بأنني عليم بالتجارات وتصريف الأموال ونحو ذلك.
الحالة الثالثة: من عرف النعمة والمنعم، لكن جحدها كما يجحدها المنكر لنعمة المنعم عليه بها، فقد كفرها، يعني هو يعرف أنه في نعمة وأن الله هو الذي أنعم عليه لكن يجحد هذا كله.
الرابعة: من عرف النعمة والمنعم بها وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع بها ولم يحب الله جل وعلا من أجلها ولم يرض بالله، ولم يرض عنه، يعني هو أقر بالنعمة وعرف أنه عليه نعم كثيرة، وأقر بالمنعم، واعترف أنها من الله جل وعلا، لكن لم تحمله هذه النعمة على محبة المنعم وعلى الخضوع له جل وعلا وعلى الرضى عنه، فهذا لم يشكر النعمة.
أما الشاكر الحقيقي فهو كما يقول الشيخ: ومن عرفها، هذا أولاً، وعرف المنعم بها، هذا ثانيًا، وأقر بها، هذا ثالثًا، وقطع للمنعم بها، وأحبه ورضي عنه، ورضي به، واستعملها في محابه وطاعته، فهذا هو الشاكر.
مرة أخرى: من هو الشاكر الحقيقي؟ في هذه الخمس كلمات، من عرفها، يعني عرف النعمة، وعرف المنعم بها، وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضي عنه وبه، رضي بالله، يعني بالله ربًّا وبالله منعمًا ورضي عن الله جل وعلا ولم يسخط عليه سبحانه وتعالى، ورضي ورضي به وعنه ، واستعملها في محابه؛ فيما يحبه، وطاعته، فهذا هو الشاكر لها.
ثم يختم هذا الكلام بقوله: فلا بد في الشكر من :
علم القلب، هذا أولاً، لا بد في الشكر من علم القلب، يعني اعتراف القلب وإقرار القلب بأن هذه النعم من الله جل وعلا وأن هذا الشخص منعَم عليه بنعم لا تعد ولا تحصى، وأن هذه من الرب الجليل سبحانه وتعالى تكرمًا منه ومنة ليس لأنك تستحق هذه النعمة، شخص يقول لا، هذا بالفهلوة أو بعلمي أو باجتهادي وبمعلوماتي أحصّل هذه التجارات وهذه الأموال وأدير كل هذه الأعمال فأنا أستحق أن يكون لي مثل هذا وأضعافه وزيادة، هذا لم يعرف النعمة ولم يشكر النعمة ، فإن الله جل وعلا أنعم بها عليك تفضلاً منه ومنة منه سبحانه وتعالى.
إذًا كما يقول الشيخ لا بد في الشكر من علم القلب، إقرار القلب واعتراف القلب بالنعمة وبالمنعم.
ثم يقول: وعمل يتبع العلم، يعني في هذه الحيثية، ما هو العمل الذي يتبع العلم؟ الخضوع للمنعم، تحملك هذه النعمة على الخضوع له جل وعلا، يعني

شخص كان فقيرًا والله جل وعلا أنعم عليه بالمال، أو كان مريضاً والله جل وعلا أنعم عليه بالصحة، يحمله هذا المال وهذا المنصب وهذه المكانة وهذه الصحة على الخضوع للمنعم والاستكانه له والمحبة له جل وعلا، يعني كما يقولون كنت أين وصرت أين، ثم بعد ذلك: واستعمالها في طاعته.

هذا كلام ابن القيم في طريق الهجرتين، وذكر الحديث المعروف بسيد الاستغفار "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي" "أبوء لك بنعمتك علي" تضع خطًّا تحت هذه الكلمة "أبوء لك بنعمتك علي" أعترف لك بنعمتك علي، النعم التي لا تعد ولا تحصى، هذا دعاء سيد الاستغفار، وفيه اعتراف الإنسان بنعم الله جل وعلا عليه وإرجاعها إليه جل وعلا "أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي" ظلم الإنسان لنفسه، الله جل وعلا ينعم عليه وهو يظلم نفسه ويفرط في حق الله جل وعلا، الله جل وعلا ينعم ويسبغ النعم، وهذا يزيد في المعاصي وفي الظلم والعدوان.

وهذا طبع الإنسان، هكذا خلق الإنسان، ظلومًا جهولاً، هكذا الإنسان مجبول على هذا، على الظلم والجهل وكفران النعم، كما سيأتي في تفسير هذه الآية الكريمة التي ستأتي في أول الباب.

لذلك أهل العلم شراح العقيدة قالوا بأن الشكر له ثلاثة أركان:

أول ركن من أركان الشكر: الاعتراف بالنعمة والإقرار بها، هذا أول شيء، لا بد للإنسان أن يعترف في نفسه ويقر في نفسه بالنعمة أيًّا كانت، وكما قلنا النعم كثيرة.

ثانيًا: الثناء على المنعم بها، أي : الثناء عليه باللسان، الثناء على المنعم بها.

الثالث: استعمال هذه النعم في مرضاته جل وعلا، استعمال هذه النعمة في مرضاته سبحانه وتعالى أو في مراضيه أو فيما يحبه، هذه ثلاثة أركان للشكر لا بد منها.

بأي شيء يكون الشكر؟

يكون الشكر بثلاثة أشياء، يكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بالجوارح، قال تعالى (اعملوا آل داود شكرًا)، وكما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة: يعني قومٌ أنعموا على هذا الناظم بنعمة أو أسدوا له معروفًا فيقول ليَ أن أشكر نعمتكم هذه بثلاثة أشياء:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

يدي: شخص أعطاك شيئًا فتعطيه شيئًا مقابله، كالذي يُهدى ويهدي. ولساني: يشكر بلسانه، لا يجد شيئًا يعطيه فيشكر بلسانه أو يشكر باللسان مع اليد.
والضمير المحجبا: الذي هو القلب، فيحب من أنعم عليه، يحبه بقلبه.
وما هو الفرق بين الشكر والحمد؟ الحمد رأس الشكر، لكن هناك فرق دقيق بينهما: فالحمد وصف المحمود بصفات الجمال، أو الثناء على المحمود بالصفات الجميلة
وهذا الثناء لا يشترط أن يكون في مقابل نعمة لأن الشكر لا بد أن يكون في مقابل نعمة، انتبه للفرق بين الحمد والشكر من ناحية شيئين:
من ناحية الآلة التي تشكر بها أو تحمد ومن ناحية المتعلق، فالشكر يكون على النعمة، يعني شخصا مثلاً أسدى لك معروفًا تشكره ولا تقول تحمده، ساعدك في مصلحة أو ذهب معك إلى شفاعة وغير ذلك تقول شكرًا ولا تقول أحمد فلانًا، الشكر يكون في مقابل النعمة أما الحمد يكون من أجل صفات المحمود الصفات الجميلة التي يثنى بها على المحمود كأن يكون هذا الشخص المحمود كريمًا عالمًا شجاعًا شهمًا أبيًّا وغير ذلك.
الرب جل وعلا يُحمد على ذاته وعلى صفاته الجميلة وعلى أسمائه الحسنى وعلى أفعاله وعلى قدره وعلى حكمه، سبحانه وتعالى. أما الشكر كما سبق يكون في مقابل نعمة.
إذاً الشكر يكون بالثلاثة: بالقلب وذكرنا معناه، وباللسان، وبالجوارح،
أما الحمد فقالوا يكون باللسان وبعضهم يزيد بالقلب أيضًا، يعني يكون بالقلب وباللسان.
المسألة الأخيرة: ما الفرق بين الحمد والمدح؟
بينهما فرق، الحمد كما سبق هو: الثناء على المحمود بالصفات الجميلة مع المحبة والتعظيم، هذه تضيفها للتعريف السابق
لكن المدح : الثناء على المحمود بالصفات الجميلة بدون المحبة والتعظيم، يعني قد تمدح أسدًا مثلاً أو تمدح فرسًا في شدة عدوه وسيره أو أسدًا في ضراوته وشجاعته لكن أنت لا تحب الأسد ولا تخضع له ولا تحب الفرس وتخضع له، لكن الحمد يكون وصف المحمود بالصفات الجميلة مع المحبة والخضوع، أنت قد تدخل على أمير من الأمراء أو سلطان من السلاطين عنده قهر وعنده غلبة وعنده تسلط على الرعية فتمدحه لكي تتخلص منه، لكن هذا المدح منك ليس فيه محبة وليس فيه خضوع، ولا نقول تحمده، فإن الحمد يكون معه المحبة والتعظيم والخضوع

إذًا هذا الآن الفرق بين الحمد والمدح، وبين الشكر والحمد.

هذا الباب الذي عقده المؤلف باب قول الله جل وعلا (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي) يريد المؤلف أن يقرر فيه مسألة عظيمة: أن نسبة النعم إلى الله جل وعلا توحيدًا، ونسبة النعم لغير الله شرك، على التفصيل

نسبة النعم إلى الله جل وعلا توحيدًا، ونسبة النعم لغيره شرك قد يكون أكبر وقد يكون أصغر.

فيكون شركًا أكبر إذا اعتقد الإنسان أن هذا الشخص الذي نسب إليه النعمة - الشخص أو غير الشخص- قد ينسبها لشيء آخر، فإذا اعتقد أن هذا هو الموجد لها وهو المتصرف بها والموصل لها إليه لأنه أوجدها أو خلقها، هذا شرك أكبر لا إشكال فيه.

أما إذا اعتقد الإنسان بأن الرب جل وعلا هو الخالق لهذه النعم ولكن نسبها لغيره على وجه اللفظ فقط، يعني الإشراك يكون في اللفظ فهذا من الشرك الأصغر، وبعض العلماء يقول: نوع شرك في الربوبية.

إذا نسب الإنسان النعم لغير الله مع اعترافه أنها من الله فهذا شرك أصغر، أو نوع شرك في الربوبية.

وقد مر بنا بابان معناهما قريب من هذا الباب: باب (يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها)، وباب (فلا تجعلوا لله أندادًا) وتكلمنا على الذي يقول: لولا البط في الدار لأتانا اللصوص، ولولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، وقول بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة وكان الملاح حاذقًا، ونحو ذلك، فتكلمنا هناك عن شيء من هذا البحث، وهي نسبة النعم لغير الله وإضافة النعم لغير الله سبحانه وتعالى.

إذًا عرفنا بأن نسبة النعم إلى الله توحيد، ونسبة النعم لغيره شرك، قد يكون أكبر إذا اعتقد أن الشخص الذي نسب إليه النعمة والذي أوجدها وكونها وخلقها .

وقد يكون أصغر إذا اعتقد أن الله جل وعلا هو الذي خلقها، ولكن نسبها لهذا الشخص.

ولا مانع أن ينسبها للسبب بعد أن يبين المنعم بها، لا مانع أن تقول الله جل وعلا من علي بكذا عن طريق فلان أو أكرمني الله جل وعلا بالوظيفة الفلانية بسبب فلان الفلاني أو من الله علي بالشفاء من هذا المرض بسبب فلان

الفلاني، لكن تنسب النعم أولاً إلى المنعم بها ثم في المرتبة الثانية تذكر السبب، هذه مقدمة لهذا الباب .
وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ أن الشكر مبني على خمس قواعد :
القاعدة الأولى: الخضوع للمشكور، الخضوع للرب سبحانه وتعالى المشكور، فالإنسان الذي أنعم الله جل وعلا عليه بنعمة ينبغي أن يخضع للمنعم عليه ولا يتكبر بهذه النعمة ولا يتعالى بها، يخضع للمنعم، يخضع للرب تعالى يخضع بهذه النعمة لمن أنعم بها عليه..
القاعدة الثانية: المحبة للمنعم أو للرب تعالى أو للمشكور وهو الرب جل وعلا..
الثالثة: الاعتراف بالنعمة..
الرابعة: الثناء عليه بها باللسان.. يعني بعدما يعترف الإنسان بالنعمة لأن بعض الناس مهما أعطي من النعم لا يعترف أنه منعم عليه أو أنه يعيش في نعم .
فيثني الإنسان ويقول الحمد لله ، ربنا جل وعلا أنعم علي بالولد أو أنعم علي بالصحة أو أنعم علي بأن عافاني من الحادث أو المرض الفلاني أو أنعم علي بربح أو نحو ذلك **(وأما بنعمة ربك فحدث)** .
الخامسة : استعمال هذه النعمة فيما يرضي المنعم سبحانه وتعالى.
فهذه خمس قواعد يدور عليها الشكر، ذكرها ابن القيم في المدارج .
وهناك كلمة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كما في مجموع الفتاوى في المجلد الثامن في مسألتين : الأولى : العلاقة بين التوحيد والشكر.
الثانية: كيف نتوصل لهذا الشكر الذي نتكلم عليه، والعلاقة بين التذكر والشكر .
فقال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى ؛ {٨ / ٣٣ إلى ٣٥ } : قُرن الشكر بالتوحيد في الفاتحة وغيرها ؛ فالفاتحة أولها شكر وأوسطها توحيد ؛ الفاتحة أولها **(الحمد لله رب العالمين)** والحمد رأس الشكر، وأوسطها توحيد **(إياك نعبد)** يعني لا نعبد إلا إياك ولا نعبد إلا أنت **(وإياك نستعين)**؛ والاستعانة عبادة ؛ ثم قال : قُرن الشكر بالتوحيد في الفاتحة وغيرها أولها شكر وأوسطها توحيد وفي الخطب المشروعة لا بد فيها من تحميد وتوحيد ؛ كما في خطبة الحاجة ؛ وهذا ركن في كل خطاب ؛ الخطيب عندما يخطب لا بد أن يكون في خطبته تحميد، حمد لله جل وعلا وتوحيد.. إن الحمد لله نحمده ونستعينه ثم يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول عبده ورسوله ﷺ.. فهذان

ركنان في كل خطاب: التحميد والتوحيد ؛ يقول: وهو سبحانه يفتتح خطابه بالحمد ويختتم الأمور بالحمد سبحانه وتعالى ، يفتتح خطابه بالحمد **(الحمد لله رب العالمين)** ؛**(الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)** إلى آخر الآيات الكثيرة ؛ ويختم خطابه بالحمد كما قال :**(وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين)** آيات كثيرة فيها الافتتاح بالحمد يعني في سور فيها الافتتاح بالحمد ويختم رب العالمين خطابه كما يقول الشيخ بالحمد والثناء على نفسه جل وعلا..

إذا هذه علاقة التوحيد بالشكر ؛ فالموحد ينسب النعم للمنعم بها سبحانه وتعالى ولمن أسداها إليه ولا ينسبها لنفسه أو للسبب ابتداء وإن كان الله جل وعلا جعل السبب سببا ؛ لكن لا بد أولا أن ينسب النعمة للمنعم بها ثم بعد ذلك يعقب بالسبب .

المسألة الثانية : كيف نتوصل إلى الشكر؟

يقول شيخ الإسلام : الشكر والتذكر متلازمان فإن الشاكر إنما يشكر بحمده وطاعته .

وسبق بيان أن الشكر يكون بالقلب وباللسان وبالعمل، بالطاعة أو بالشكر العملي ؛ كما قال تعالى : **(اعملوا آل داود شكرا)** إنما يشكر بحمده وطاعته وفعل ما أمر به وذلك إنما يكون بتذكر ما تدل عليه آياته .

لكن كيف تصل إلى هذا الشكر؟

يقول الشيخ: بتذكر ما تدل عليه آياته من أسمائه وممادحه ومن أمره ونهيه ؛ فيثني عليه بالخير . والإنسان إذا تأمل وتذكر في آيات الله جل وعلا وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله أداه ذلك إلى الثناء على الله جل وعلا وإلى حمده جل وعلا على ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وحكمه الكوني القدري والشرعي سبحانه وتعالى ؛ وحمده على عدله وفضله سبحانه وتعالى .

يقول الشيخ: وهذا هو الشكر ولا بد فيهما من التذكر، فإذا تذكر آياته عرف ما فيها من النعمة والإحسان ، وكل واحد منا مهما كان حاله مغمور بنعم الله جل وعلا وبإحسانه وإنعامه ونعمه التي لا تعد ولا تحصى ؛ مهما كان عنده من المشاكل أو الضيق أو المرض أو الفقر أو الفاقة أو غير ذلك .

يقول الشيخ: والتذكر إذا تذكر آياته عرف ما فيها من النعمة والإحسان، فكل ما خلقه سبحانه فهو نعمة على عباده.. كل ما خلق الله جل وعلا لك فهو نعمة وهو خير وهو سبحانه بيده الخير، وفي دعاء الاستفتاح «**والخير بيديك، والشر ليس إليك**».

فهذه هي العلاقة بين الشكر والتذكر، والتذكر هذا أيضا في الحقيقة له سلم وله وسيلة ؛ يقول الحسن البصري : عاملنا القلوب بالتفكر فأورثها التذكر فرجعنا بالتذكر على التفكر فحركنا بهما القلوب فإذا القلوب لها أسماع وأبصار ؛ فيتفكر في الآيات النفسية والأفقية ، ويتفكر في مقارنة حاله بحال من هو دونه من الناس ؛ إذا كان هو أعور فغيره أعمى، فإذا كان هو يمشي على رجل واحدة فغيره مقعد ؛ وقس على ذلك ؛ والأمثلة كثيرة جدا .

لكن لا بد أن يستدعي التفكر، يعطي الإنسان نفسه فرصة ولو دقائق يتفكر فيها، في حاله، في إحسان الله جل وعلا إليه، في النعم التي لا تعد ولا تحصى، في إيمانه هل يزيد أو ينقص؟ في أعماله، قد لا يكون هذا الأمر خطر على بال كثير من الناس أنه يجلس يتفكر يتأمل في كل ما ذكرت، إذا هذه الخطوة الأولى .

هذا التأمل وهذا التذكر يوصله إلى التفكر ؛ والتذكر هذا يسوقه إلى الشكر، يقول الحمد لله والشكر لله ، بعدما يتدرج من التفكر إلى التذكر فإنه في الأخير يحرك قلبه بالثناء وبالاعتراف ويحرك لسانه بالثناء على الله جل وعلا ويحرك قلبه بالاعتراف بنعم الله جل وعلا التي لا تعد ولا تحصى .

فالسلم للشكر يبدأ بالتفكر ثم التذكر فيوصلك إلى شكر المنعم سبحانه وتعالى، يعني هذه طريقة عملية قد تغيب عن بعض الناس ، هذا خلاصة كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ : **باب قول الله جل وعلا (لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما علموا ولنذيقنهم من عذاب غليظ).**

قيل إنها نزلت في الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة على قولين لكن لم أجد إسنادا لما ذكره بعض المفسرين أنها نزلت في هذين .

قوله: قوله تعالى **(لا يسأم الإنسان من دعاء الخير)** {لا يسأم}: يعني لا يمل، الإنسان: إما أن يراد بها جنس الإنسان، طبيعة الإنسان هكذا، لا يمل الإنسان من طلب الخير مهما أعطي من المال والصحة والعافية والجاه والأولاد والثروة يريد المزيد ؛ الألف واللام في كلمة الإنسان تفيد استغراق الجنس ، فجنس الإنسان مجبول على طلب المزيد ؛ لو أن لابن آدم واديا من فضة ؛ لابتغى واديا ثانيا ؛ ولو أن له واديين لابتغى ثالثا ؛ ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب.. رواه مسلم في الصحيح.

لا يسأم : يعني لا يمل يحمل على جنس الإنسان .
قوله :**(لا يسأم الإنسان من دعاء الخير)** طلب الخير سواء كان مالا سواء كان ولدا أو غنى أو صحة أو غير ذلك ، ولا يقنع مهما آتاه الله .
ثم قال: **(وإن مسه الشر)** يقول أهل العلم : المس أضعف إحساسا بالإصابة ، شيء يسير جدا ؛ مجرد أنه يمس بشيء من الشر ولو يسيرا ؛ **(فيؤوس قنوط)** يقنط وييأس من الرحمة ويقنط، ويظن أن هذه هي القاضية عليه ، مجرد أن هذا مسيس يجعله يائسا قانطا ، وقالوا بأن الفرق بين القنوط واليأس ؛ أن القنوط هو: أن يظهر عليه أثر اليأس من الانكسار والخضوع ، يعني هو يئس من رحمة الله فد يكون هذا اليأس فقط في قلبه أو في نفسه لكن لما ظهر أثر هذا اليأس على جوارحه صرت تراه منكسرا خاضعا ذليلا، فهذا هو القنوط كما ذكر بعض المفسرين .
قوله : **(وإن مسه الشر فيؤوس قنوط)** فيظن أن هذه هي القاضية .
قوله: **(ولئن أذقناه رحمة منا)** {لئن أذقناه}: هنا قسم مقدر ، لئن أذقناه يعني أذقنا هذا الإنسان، جنس الإنسان، رحمة منا: سواء أذيق عافية، أذيق مال بعد فقر، صحة بعد مرض، والإذاقة هنا في الحقيقة بعض المفسرين يفسرها كما فسر المس، كما تذوق الشيء من طرف اللسان ؛ تأخذ منه الشيء اليسير ؛ فهذا تفسير الإذاقة ، فيصاب باليسير من النعمة، أو تفسر الإذاقة باستغراق النعمة أو استغراق اللذة كما في الحديث «**لا حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته**» .
(ولئن أذقناه رحمة منا) من الله جل وعلا لأنه هو المتفضل بها **(من بعد ضراء مسته)** أي من بعد بلاء ومن بعد شدة ، عندما تأتي النعمة من بعد الضراء يكون هذا أعظم في الإحساس بها وفي الالتذاذ بها وفي التنعم بها، يعني كان فقيرا ثم ذاق الغنى وقد ذاق قبله الفقر فأحس بعد ذلك بنعمة الغنى، كان مريضا فعوفي فيكون هذا أعظم في الالتذاذ بهذه النعمة بعد فقدها .
قوله :(**ليقولن هذا لي)** اللام أيضا واقعة في جواب القسم، **(ليقولن هذا لي)** وهنا محل الشاهد الذي أتى المصنف بهذه الآيات من أجله ؛ وسنقف الآن على كلام المفسرين، هذا لي يعني أنا أهل لهذا أو أنا أستحق هذا أو هذا لا يجوز عني ، فهذه ثلاثة أقوال في تفسير هذه الكلمة سيأتي الآن الحديث عنها مسندة .
(**ليقولن هذا لي**) يعني أنا أهل لهذه النعمة أستحق هذه النعمة سواء يستحقها بعلمه ومكانته ؛ كأن يقول : بما معي من الشهادات والذكاء بما معي من

المعرفة السياسية ، والأموال ، والمؤسسات وغير ذلك، ينسى فضل الله جل وعلا عليه، ينسى نعمة الله جل وعلا عليه، فإن شاء الله سبحانه وتعالى سلب عنه هذه الأسباب وإن شاء عطل هذه الأسباب عن مسبباتها، إن شاء سلب منه النعمة، سلب منه العقل، سلب منه التفكير، صار يتخبط، صار ينسى، كم من الناس يقع في النسيان، يخرج إلى سيارته ويقول نسيت المفتاح في البيت فيضيع وقته ثم يضيع مرة أخرى فيرجع إلى السيارة ويركب ثم يقول نسيت الجوال فينزل لأنه رجل أعمال لا بد أن يكون معه الجوال وقس على ذلك **(ليقولن هذا لي)** وينسى فضل الله جل وعلا عليه وتيسيره له وتوفيقه له **(ليقولن هذا لي)** أنا أهل لهذه النعمة أستحقها أو أنها لا تزول عني ؛ فهذا كفر بنعمة الله ـ وهذا هو محل الشاهد ـ لأنه لم ينسبها إلى المسدي لها أو المنعم بها وهو الله سبحانه وتعالى.. وفيه إعجاب بالنفس وغرور وعجب..

ثم قال زيادة على ذلك **(وما أظن الساعة قائمة)** لانشغاله بملذات الحياة وتحصيل المعاش ؛ يقول ما أظن الساعة قائمة ، وهذا فيه إنكار للبعث ، وهذا كفر أكبر ـ إنكار البعث ـ ثم يضع احتياطا فيقول **(ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى)** والحسنى اسم تفضيل يعني سأجد عنده أحسن من هذا، أو سأجد عنده المعاملة الحسنى.. فهذا مسيء لعمله ، فهنا تمني مع إساءة للعمل مع عدم يقين ، تمني، يتمنى على الله جل وعلا الأماني بدون عمل .

قوله :**(ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى)** يعني سأجد عند الله جل وعلا ؛ ولو كان هناك بعث وحساب سأجد أحسن مما أعطاني الآن ، بدون عمل وبدون إحسان وبدون يقين في البعث والحساب والنشور .

ثم حكم الله جل وعلا على من يقول ذلك ؛ فقال: **(فلننبئن الذين كفروا بما عملوا)** فقائل هذا حكم عليه بالكفر **(ولنذيقنهم من عذاب غليظ)** هذا فيه وعيد لمن يقول ذلك، والغليظ هو الشديد جدا.. إذا كان هذا الجزء من الآية في الكفار الخلص المنكرين للبعث والحساب فإن فيها تحذيرا من عملهم وبيان حكم من يعمل هذا العمل وتنبيها وتحذيرا للمسلم من أن يعمل هذا العمل ويقول مثل هذا القول وينسب النعم لنفسه ويكفر بها ولا ينسبها لمسديها وللمنعم بها وهو الرب جل وعلا ، فإذا فعل ذلك المسلم فهو فيه شبه من الكافرين الذين قالوا هذه المقالة .

قوله : «**قال مجاهد**» مجاهد بن جبر الإمام الكبير ؛ قال في تفسير هذه الكلمة : **(ليقولن هذا لي)**« **هذا بعملي، وأنا محقوق به** » يعني أنا جدير بهذا، وأنا

أستحق هذا، هذا بعملي يعني هذا بكسبي وأثر مجاهد رواه ابن جرير الطبري في تفسيره .
(ليقولن هذا لي) يعني هذا بعملي ، والله جل وعلا لم يتفضل علي بشيء ؛ بل أنا كسبت هذا بعملي وكسبي، من الذي أعطاك الصحة؟ من الذي أعطاك العافية؟ من الذي أعطاك القدرة؟ من الذي أعطاك الإرادة؟ من الذي يسر لك الأسباب.. إلى آخره ؛ ينسى كل هذا، يقول أنا محقوق به، يعني أنا أحق بهذا وأنا جدير بهذا، هذا هو الشاهد في الباب، كفر النعمة .
قوله : « **وقال ابن عباس: يريد من عندي**» يعني قوله : **(ليقولن هذا لي)** أي هذا من عندي ومن مهارتي ومن حسن تصرفي وحذقي في الأمور ، كلمات يقولها الناس تدل على نوع من العجب والكبر وإنكار النعمة .
وأثر ابن عباس لم أجده مسندا وإنما ذكره القرطبي عن ابن عباس ولم أجده لغيره .
ثم انتقل إلى الدليل الثاني وهو قوله تعالى **(إنما أوتيته على علم عندي)** هذه الآية إذا قلنا **(إنما أوتيته على علم عندي)** فهي في سورة القصص في قصة قارون، وفي بعض النسخ **(إنما أوتيته على علم)** التي في سورة الزمر، جاءت هذه الآية الكريمة في سياق قصة قارون المعروفة **(إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم)** يعني بما أعطاه الله جل وعلا من الأموال والخزائن ، وقيل إنه كان من قوم موسى أي كان من قرابته **(وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة)** وهم الجماعة الكبيرة **(أولي القوة إذا قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة)** هذا المال ابتغي فيه ما يقربك إلى الله جل وعلا **(ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك)** كما أحسن الله جل وعلا إليك بأن أعطاك هذا المال وأن يسره لك، أحسن في هذا المال بأن تخرج حق الله جل وعلا به ولا تتعال ولا تتكبر **(ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي)** وهذا هو الشاهد **(إنما أوتيته على علم عندي)** وبعض المفسرين يذكر قولا آخر ؛ المؤلف لم يذكره هنا لأنه قول ضعيف قالوا بأن قارون أوتي علم الكيمياء الذي كانوا يزعمون قديما أنه يحول الصخر أو الترتب إلى ذهب ؛ إلى غير ذلك ، فأصبح له من هذا العلم ثروة كبيرة جدا، وهذا قول ضعيف جدا ومردود وهو أقرب للخيالات والخرافات، تحويل جواهر الأشياء إلى جواهر أخرى هذا لا يصح وإنما هو مذكور في بعض

الكتب، لذلك المؤلف هنا لم يعرج عليه في أقوال المفسرين في هذه الجزئية من الآية **(إنما أوتيته على علم عندي)** .

قوله: «**قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب**» على علم عندي: يعني على علم مني بوجوه المكاسب، يعني أستطيع أني أتكسب من هنا ومن هنا ؛ وأقول هذه التجارة وهذه البضاعة تروج أو لا تروج ، على علم مني بوجوه المكاسب ، هذا الأثر عزاه لقتادة ؛ وقد عزاه له أيضا القرطبي؛ أما ابن كثير وقبله ابن أبي حاتم ذكرا أن قتادة قال : على علم عندي: يعني على خير عندي وعلم عندي ؛ وفي رواية في الطبري : على خبر عندي ؛ يعني أنا عندي خبرة وعلم كيف أكتسب المال وأستخرج الأموال من معادنها، وأثر قتادة هذا بالصيغة التي ذكرها المؤلف حكاه الماوردي عنه وحكاها عنه ابن الجوزي في زاد المسير ، قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب . لكن الكتب المسندة التي فيها الأسانيد أوردت أن قتادة قال: على علم عندي : يعني على خير عندي وعلم ؛ أو خبر عندي ، خبرة وعلم بكيفية التكسب ؛ وفي كتاب البحر المحيط في التفسير عزا هذا القول لأبي سليمان الداراني : على علم مني بوجوه المكاسب ؛ وأبو سليمان هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية.. هذا القول الأول في تفسير قوله تعالى **(إنما أوتيته على علم عندي)** .

القول الثاني: قال الشيخ «**وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل**» يعني **(على علم عندي)** قال: على علم من الله أني أهل لهذا المال أو أهل لهذا الغنى، انظر إلى الغرور والعجب .

يقول الشيخ: وقال آخرون.. الآخرون هؤلاء منهم عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال ابن كثير وهو يستملح هذا التفسير، يعني ابن كثير مستحسن هذا التفسير ؛ يقول ابن كثير: وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فإنه قال فيها: لولا رضى الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال ، فانظر إلى هذا العجب والغرور وقرأ **(أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا)** فهذا تفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأيضا هذا التفسر ارتضاه ابن جرير الطبري وذكره في تفسيره ؛ على علم عندي: على علم من الله أني له أهل . على علم أن الله جل وعلا راض عني لذلك أعطاني هذا المال، وربنا جل وعلا يعرف فضلي ومكانتي وأني أستحق هذا المال فأعطانيه.. هذا فيه إدلال على الله جل وعلا وإعجاب الإنسان بعمله وإدلال الإنسان بعمله ونظره لنفسه بعين العجب والكبر.

قوله : «**وهذا معنى قول مجاهد**» هذا معنى قول مجاهد بن جبر: أوتيته على شرف ؛ ومجاهد قال هذه الكلمة في تفسير آية الزمر ؛ وليس في تفسير هذه الآية (**فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم**) فقال مجاهد: على علم: أي أوتيته على شرف، يعني أنا أناله بشرفي ووجاهتي ومكانتي. وهذا التفسير رواه ابن جرير وابن المنذر، وعبد بن حميد كما ذكره السيوطي في الدر المنثور.. قال تعالى بعد هذه الآية في الزمر (**بل هي فتنة**) قال مجاهد: أي لما علم الله استحقاقي له ولولا أني عند الله خصيص لما خولني هذا ؛ يعني ربنا جل وعلا يعلم استحقاقي لهذا المال وأنني أستحق أن يخصني بهذا المال وإلا لما خولني هذا المال.. هذا الذي قاله مجاهد في تفسير آية الزمر، قال تعالى (**بل هي فتنة**) يعني استدراج.. (**ولكن أكثرهم لا يعلمون**) فهذا استدراج وامتحان ينظر أيشكر أم يكفر؟ .

(الدرس الثالث لهذا الباب)

ثم ذكر المؤلف دليلا ثالثا من السنة، وهو قصة ثلاثة من بني إسرائيل: الأبرص والأقرع والأعمى.. ذكر المؤلف هذه القصة لتكون دليلا أو شاهدا لما أراد أن يثبته في هذا الباب،

والقصة والقصص جاء في القرآن والسنة وكثر في القرآن والسنة، قال الله جل وعلا في آخر سورة يوسف **(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى)** لقد كان في قصص الأولين عبرة، فالقصص والقِصص لها فائدة عظيمة، أن فيها عبرة، وهي أن يقيس الإنسان أحوال نفسه على أحوال السابقين، فيعتبر بذلك ، القصص فيها فائدة عظيمة ذكرها الله جل وعلا بقوله **(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)** ثم علل ذلك قال: **(ما كان حديثا يفترى)** ليست هذه القصص التي في القرآن حديثا مفترى مكذوبا، وهذا سنقف عنده بعد قليل **(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه)** يعني بين يدي القرآن من الكتب السابقة، تصديق ما جاء في الكتب السابقة **(وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)** لذلك كان هناك عدة آداب تتعلق بالقصص، من هذه الآداب أنه قد جاء في الحديث الذي رواه أبو داوود وابن ماجة من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وفي رواية أخرى من حديث عوف بن مالك قال النبي ﷺ: «**لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال**» أي لا يقص على الناس إلا أمير أو مأمور أو مختال وفي رواية ابن ماجة «**أو مُراء**» يعني الذي يقص على الناس ينبغي أن يكون عنده علم، الأمير أو الحاكم

«**أو مأمور**» يعني أمر أن يقص على الناس، أمره ولي الأمر أن يجلس يقص على الناس بطريقة صحيحة وأن يراعي آداب القصص.. أو مختال، وفي رواية: أو مراء.. كشخص يختال ويرائي ويتكبر لأنه يقص بدون إذن وبدون أن يصرح له بالقص، لماذا؟ لأن القصص حصل فيها إشكال، جاء في التاريخ من يعرفون بالقصاص والمذكرين، فكانوا يجلسون إلى الناس يقصون عليهم القصص المكذوبة والمختلقة والمفتراة ، ويأتون لهم بالأعاجيب والأباطيل، لذلك وُجد ابن عمر مرة خارجا من المسجد فقيل له: ما أخرجك؟ فقال: ما أخرجني إلا قاصكم هذا.. يعني هذا الذي جالس يقص عليكم هو الذي أخرجني لأنه يلفق الحكايات ويؤلف ويكذب، فألف أهل العلم كتبا في التحذير من القصاص والمذكرين الذين يقصون ويذكرون بدون علم وبدون إذن من

أهل العلم، فالذي يجلس للناس لا بد أن يستأذن من أهل العلم، الإمام مالك ما جلس حتى أذن له سبعون معمما أو أربعون معمما أو كما قال، أي أذنوا له بالتحديث والجلوس

فليس أي أحد يجلس للناس فيأتيهم بالحق والباطل بالصحيح والضعيف بالأباطيل والخرافات والأساطير.

المقصود أن القص والقصص من آدابه أن الإنسان لا يقص إلا إذا كان عنده علم وأن يصرح له بذلك.

المسألة الثانية المهمة وهي: هل يجوز للإنسان أن يخترع قصة يقصها على الناس أو حكاية كما يقولون؟

سئل الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله تعالى وهو أحد علماء مصر الأفذاذ الذين جلسوا في مصر من عمرهم أربعين عاما وجلسوا في المملكة أربعين عاما حتى صار نائبا لرئيس اللجنة الدائمة للإفتاء الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى جاء في فتاويه أنه سئل عن القصة والحكاية فكان جوابه ما يلي: قال:

(يشترط أن تكون القصة صدقا).. يعني أول شرط أن تكون صدقا وليست ملفقة وليست بالأكاذيب،

(وأن يكون هدفها خيرا).. لأن بعض القصص قد تكون صادقة لكن ليست مناسبة أن تقصها على الناس، قد يكون فيها نوع من الإخافة، قد يكون فيها نوع من الإشاعة ونحو ذلك.. يقول الشيخ: **(ولا يجوز اختلاق قصة لم تقع)**.. إذا يرى الشيخ أنه لا يجوز لإنسان أنه يختلق قصة وحكاية لكي يقضي الأوقات للناس أو يسلي الناس كما يقولون.

وقال أيضا في جواب آخر: يجوز لك أن تروي حكاية حكاها ابن الجوزي مثلا، يعني يقصد في تاريخه.. أو غير ابن الجوزي بشرط أن تنسبها إليه، وتكون العهدة عليه.

والمسلم ولله الحمد في غنية عن أن يخترع القصص أو يؤلف قصصا للناس، لأن القرآن والسنة مليئان بالقصص العظيمة ، ومنها قصص الصالحين وقصص الأنبياء وقصص أصحاب الكرامات كأصحاب الكهف وغير ذلك من القصص الكثيرة التي في كتاب الله جل وعلا وكذلك في السنة، منها هذه القصة وهي قصة الأبرص والأقرع والأعمى.

وهناك كتب ألفت في صحيح القصص النبوي، بعض المعاصرين جمعوا واجتهدوا في جمع القصة الصحيحة التي صحت بها الأحاديث، بعضها كتابات يسيرة وبعضها كتابات كبيرة،

وقد جاء في هذا الحديث عبرة وعظة وشاهد لما أراد المؤلف أن يسوقه ويذكره من مسألة شكران النعمة وأن المسلم دائما يشكر النعمة وأن من التوحيد شكر النعمة والاعتراف بها لمن أسداها وأن الإنسان يتبرأ من حوله وقوته وينسب النعمة وينسب الحول والقوة لله رب العالمين، ولا مانع بعد ذلك أن يأتي بالسبب ولا يقول إني أهل لهذه النعمة وإني أستحق ذلك بفكري أو بعملي أو بشهاداتي أو بتخرجي أو بعقلي أو بذكائي أو نحو ذلك.

يقول رحمه الله تعالى «**وعن أبي هريرة رضي الله عنه**» هذا الحديث رواه البخاري في موضعين: رواه البخاري في كتاب الأنبياء في ذكر بني إسرائيل

وكذلك في كتاب الأيمان والنذور،

البخاري أتى به في كتاب الأنبياء وأتى به مختصرا في باب الأيمان والنذور من أجل فائدة لطيفة سنذكرها في أثناء الحديث ، وأتى به مسلم في كتاب الزهد والرقائق.. قال: إنه سمع النبي ﷺ يقول.. و هناك اختلاف في بعض النسخ وفي بعض نسخ مسلم، وفي بعض روايات البخاري سننبه على بعضها والتنبيه على البعض الآخر يحتاج إلى جمع نسخ متقنة ليس فيها تصحيف، الطبعات المعروفة الموجودة بين أيدينا ولكن سننبه على بعض ما فيها إن شاء الله سبحانه وتعالى.

قال: «**إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى**» هنا ذكر هؤلاء الثلاثة من بني إسرائيل، وبنو إسرائيل هم أولاد يعقوب ومن كان من نسلهم، وذكر هذه القصة لأخذ العظة والعبرة منها، وليس هذا من باب الغيبة لأنه لم يذكر أسماء الأشخاص، وإنما ذكرهم على الإبهام ليحصل بهم العبرة وهذا موجود في مواطن كثيرة، منها قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، كان منهم هذا الذي أراد أن يزني ولم يذكر اسمه وكان أيضا فيه المرأة التي راودها عن نفسها ولم يذكر اسمها، وكذلك الرجل الذي ترك حقه لصاحب العمل ومشى ولم يذكر اسمه، والذي أخذ المال ولم يذكر اسمه وغير ذلك.

فالمقصود من القصة ليس الأسماء، كما ذكر أصحاب الكهف ولم يذكر تحديدا عددهم أو أسماءهم أو نحو ذلك، فالمقصود أخذ العظة والعبرة وليس معرفة الأسماء.

والمقصود من هذا ألا نقع فيما وقع فيه هؤلاء، يقول: «**إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص**» والبرص هو بياض يظهر في الجلد أو في ظهر البدن، فهذا رجل أبرص وآخر أقرع ليس على رأسه شعر، أصلع أو أقرع، لكن هذا قرع كلي، وأعمى، يعني فقد بصره، وهذا يكون في العينين وإلا ففاقد العين الواحدة يسمى بالأعور «**فأراد الله جل وعلا أن يبتليهم**» أراد إرادة كونية ترادف المشيئة، وفي بعض النسخ للبخاري «**بدا**» وبدا: تفسر بالروايات الأخرى، بدا بمعنى أراد وليس معناه أنه ظهر له علم جديد لم يكن يعلمه فإن الله جل وعلا علم كل شيء وكتب كل شيء في اللوح المحفوظ سبحانه وتعالى «**فأراد الله جل وعلا أن يبتليهم**» يعني يختبرهم بالنعم، وهذا هو الذي سيكون محل الشاهد، الابتلاء والاختبار بالنعم **(ونبلوكم بالشر والخير فتنة)** أحيانا الإنسان إذا ابتلي بالضراء يصبر، أو بمرض يصبر، يعرف أن فيه أجرا، إذا ابتلي بحادث يصبر، بفاقة يصبر، لكن كثير من الناس إذا ابتلي بالنعماء لا يصبر ويسارع إلى ما تهواه شهواته وهواه ويكون منه البطر والكبر والغرور والعتو والطغيان، فكثير من الناس ابتلوا بالمرض والفقر والفاقة والشدة فصبروا،

وكثير من الناس ابتلوا بالخير والنعمة وانفتاح الدنيا فلم يصبروا وانساقوا معها وتركوا أماكنهم في الصف الأول وتركوا أماكنهم في الجمع والجماعات وفي حضور دروس العلم وفي الإنفاق في جهات الخير على الفقراء والمساكين ونحو ذلك

«**أراد الله جل وعلا أن يبتليهم**» يعني بالنعم «**فبعث إليهم ملكا**» ملكا في صورة رجل.

وهنا مسألة مهمة في الحقيقة لم نتكلم عليها من قبل وهي مسألة مهمة في الحقيقة

وهي مسألة أن بعض الناس احتج بهذا الجزء من الحديث وهي إتيان ملك في صورة رجل على جواز التمثيل والتمثيليات ونحو ذلك، وهناك كلام للشيخ بكر أبو زيد سأذكره لكم منقول من رسالة جيدة اسمها حكم التمثيل، للشيخ الدكتور بكر أبو زيد رحمه الله تعالى ، وهو كتاب رائع في الحقيقة من ناحية الأصول والتقعيد والاستدلال، وهناك كتاب آخر للشيخ عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم رحمه الله تعالى ، اسمه إيقاف النبيل على حكم التمثيل..

الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى يقول جوابا لمن استدل بهذا الحديث على التمثيل يعني المستدل يقول: الملك جاء في صورة رجل لهؤلاء الثلاثة،

فيقول: إذا هذا معناه أن الإنسان يمثل، يأتي في صورة أبي لهب أو أبي جهل أو صورة صلاح الدين يمثل دور سيف الدين قطز أو شيخ الإسلام ابن تيمية أو نحو ذلك..

يقول الشيخ رحمه الله تعالى في كتابه حكم التمثيل: **هذا القياس فاسد لما يلي:**

وهو أن القدرة على التشكل من خصائص عالم الغيب عن عالم الشهادة، عالم الغيب يعني الذي فيه الملائكة والجن والشياطين، وإلا الملائكة أيضا والشياطين أعطاهم الله جل وعلا القدرة على التشكل، يأتي الشيطان في صورة كلب مثلا ويأتي الشيطان في صورة قطة ويأتي شيطان في صورة أفعى، الله جل وعلا جعل لهم القدرة على التشكل أو التشكيل، الملائكة الله جل وعلا جعل لهم القدرة على التشكل، فيأتي أحيانا جبريل في صورة دحية الكلبي يسأل أو في صورة أعرابي يسأل فيقول الشيخ: القدرة على التشكل من خصائص عالم الغيب عن عالم الشهادة، العالم الذي نحن فيه هذا اسمه عالم الشهادة.. فقد جعل الله سبحانه وتعالى للملائكة القدرة على أن يتشكلوا بغير أشكالهم تشكلا حقيقيا،

يعني هذا الآن نزل الملك في صورة رجل حقيقي تنظر إليه وترى رجلا متكاملا،

يقول الشيخ: كما في نصوص القرآن والسنة، قال تعالى **(فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا)** يعني رأت أمامها بشرا سويا.. لم تر صورة مكذوبة أو صورة تمثيلية،

يقول: وجاءت الملائكة إلى إبراهيم في صورة البشر..

وجاءت إلى لوط كذلك في صورة البشر..

ثم يقول الشيخ: ومن إعطاء الله القدرة على التشكيل ما في قصة الأبرص والأقرع والأعمى التي معنا.. يقول الشيخ: ومن إعطاء الله.. يعني الملك.. القدرة على التشكل ما جاء في هذه القصة التي نحن نتكلم عنها.. ثم تكلم إلى أن قال: فهذه تشكيلات حقيقية ليست تمثيلا وليست كذبا وليست زيفا، أقدر الله عليها عالم الغيب من الملائكة الأبرار.. والشياطين والجن الأشرار، يعني هذه العوالم الغيبية الله جل وعلا أعطاهم هذه القدرة على التشكل، تشكل في صورة آدمي، تشكل الشياطين في صورة حيات أو في صورة قطط أو في صورة كلاب ونحو ذلك، هذا شيء حقيقي،

يقول: **(واختصهم بها لعلة الامتحان والابتلاء والاختبار)**. لكن هل أحد منا يستطيع أن يتشكل؟ لا يستطيع أن يتشكل تشكلا حقيقيا، هذه اختص الله جل

وعلا بها تلك العوالم، لعلل وأحكام لا يعلمها إلا من قدرها.. لو أن أحدا قال: نريد أن نفعل مثل الملائكة أن نتشكل، نقول: هذا شيء يخص عالم الغيب فلا يستطيع أحد أن يقول أريد أن أعمل مثل الملائكة فلا أتزوج مثلا، ولا آكل، ولا أشرب، الملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تنكح، هل تقول: إذا أريد أن أقيس نفسي عليها ؟ لا فنحن مقيدون بالشرع، فلا يصح أن تقول أظل طيلة الأيام أصلي كالملائكة، السماء فيها ملائكة ما بين راكع أبدا وساجد أبدا وقائم أبدا حتى تقوم الساعة.. هل تستطيع أن تقول أظل كالملائكة أقوم دائما وأصوم دائما.. إلى آخره.. لا يستطيع أحد ذلك، إذا فعلت هذا فأنت مأزور في الشريعة وأنت لك حكم في الشريعة ومخالف للشريعة، فعالم الملائكة لا يقاس عليهم .

يقول الشيخ بكر ـ رحمه الله ـ : ولم تكن هذه التشكيلات الحقيقية لآدمي قط، يعني لا يعرف أن هناك إنسانا آدميا تشكل هذه التشكيلات أو بعضها ؛ فهي قاصرة على محلها ؛ يعني جاء النص أن هذا في عالم الغيب ؛ فيقتصر فيه على عالم الغيب بناء على هذا فقياس عالم الشهادة على عالم الغيب في ذلك قياس فاسد ؛ قياس عالم الغيب على عالم الشهادة الذي نحن فيه الذي يقيس نفسه على الملائكة أو الملائكة علينا هذا قياس فاسد لأنه قياس تشكل جزئي أو وهمي كاذب على تشكل كلي حقيقي صادق، يعني تشكل الملائكة فيه ثلاثة أشياء : أنه حقيقي وأنه صادق تشكل صادق وتشكل كلي . أما القياس قياس البشر على هؤلاء فهو تشكل جزئي ، يعني يتشبه بهم في جزئية واحدة أنه صلاح الدين مثلا في شجاعته أو في غزوه أو نحو ذلك ؛ فهو جزئي وهمي كاذب .

يقول الشيخ: ولأن العلة الجامعة.. هذه مسألة أصولية.. ولأن العلة الجامعة قاصرة على محلها في عالم الغيب.. يعني العلة موجودة في عالم الغيب ولا تستطيع أن تقول إن العلة متعدية إلى عالم الشهادة الذي نحن فيه .

ثم قال: ولو اشتركا في العلة فشرطها أن تكون بوصف ظاهر، وشرط العلة أن تكون وصفا ظاهرا منضبطا يصح القياس عليه.. يقول: وليست في عالم الغيب كذلك..

ثم يقول: فتلخص من هذا أنه قياس فاسد لاختلال ركنه وشرطه.. ثم يختم آخر رسالته بقول: والخلاصة أن التمثيل حرفة وأداء وتكسبا وعرضا للمشاهدة لا يجوز لأنه إن كان تمثيلا دينيا فهو بدعي لوقف العبادات على النص، لأن العبادات موقوفة على النص عن المعصوم الذي جاء في الكتاب والسنة ،

فالعبادات موقوفة على النص.. إن كان هذا التمثيل دينيا فهو بدعي لأنه لا يوجد نص يجوزه أو يمشيه.. ولما علمت من أصله لدى النصارى واليونان.
فالشيخ تكلم في مقدمة طويلة كيف جاء التمثيل إلى بلاد المسلمين ؛ يقول حتى أنه في الجاهلية لم يكن أهل الجاهلية يعرفون التمثيل، يعني هذا التمثيل لم يكن معروفا حتى في عصور الجاهلية الأولى.. وإنما جاء من اليونان والنصارى.. وإن كان غير ذلك.. يعني إن كان ليس دينيا.. فهو لهو محرم لما فيه من التشبه .
يقول الشيخ: وجاءت الشريعة بالنهي عن التشبه.. نصوص كثيرة الشريعة جاءت فيها بالنهي عن التشبه.. ولما رأيت من تفاريق الأدلة.. وأخيرا يقول: بالجملة فإن انتشار التمثيل بصفته التي تشاهد وتسمع.. يعني التمثيل الذي نراه في هذه الأيام في هذا العصر يمثل اعتلالا في الأمة، يعني مرضا في الأمة، التمثيل الموجود الآن في هذا العصر يمثل اعتلالا في الأمة ونهما في اللهو واللعب.. واستغراق وغلو في اللهو واللعب.. فكثير من الناس يشاهد الأمسيات والتمثيليات والمسرحيات والأفلام بالعشر ساعات والخمس ساعات والست ساعات ولا يمل ولا يكل..
ثم قال : ووهنا في الدين ، أي ضعفا في الدين.. وفراغا في العلم.. فهو تحطيم للأمة في قوتها وتنمية طاقاتها .. يحطم الطاقات والموارد ؛ فمن يشاهد الساعات الطوال بعد ذلك يريد أن يأكل وينام وقد تعب من المتابعات وحصل عنده نوع من الإرهاق .
يقول: تحطيم للأمة في قوتها وفي تنمية طاقاتها ومواهبها.. بل هو ضرر محض عليها في الدين والدنيا.
وقد ذكر الشيخ أن هذا التمثيل مخطط تخريب يهودي ، ونقل من البروتوكولات أشياء تدل على ذلك، والواقع يدل على ذلك ، فلا يكاد محل يخلو من التلفاز بيت إلا قليل .
فهذا الكلام في جواب لمن استدل بهذا الحديث ، حديث الأبرص والأقرع والأعمى على جواز التمثيل..
قوله : «**فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟**» والبرص بياض في الجلد ؛ وقد أعيا الأطباء علاجه .
قوله : «**لون حسن**»يعني أراد لونا حسنا ؛ يعني الجلد نفسه يتحسن ويذهب عنه هذا البلاء ويعطى اللون الحسن ، إذا هذا طلب أعلى الصفات البدنية وأعلى صفات الجمال .

قوله: « **قد قذرني الناس به**» ليست في رواية مسلم «**به**» ؛ قد قذرني الناس يعني كره الناس مجالستي ونفروا مني من أجل البرص.. فمن يجلس مع الأبرص يحصل له نوع من التقزز والنفرة ، قال: «**فمسحه**» يعني وضع يده عليه ومسح جسمه بإذن الله فبرئ مباشرة، بدون أدوية، بدون عملية جراحية، بدون شيء ؛ فبرئ بإذن الله، وهذا يدل على عظم قدرة الله جل وعلا الذي يقول للشيء كن فيكون ، فمسحه فبرئ بإذن الله سبحانه وتعالى .

قوله :«**فذهب عنه قذره**» أي ذهب عنه الشيء المكروه ؛ إذا ذهب القذر الذي هو البرص وحل له الشيء المرغوب المحبوب .

قوله :«**وأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا**» يعني أعطي ما يتمناه كاملا، فقد يعطى الإنسان ما يتمناه كاملا لاستمرار الابتلاء والاختبار، يعني أنت الآن طلبت ودعوت وأخذت ما أردت فهل ستؤدي النعمة وحق الله جل وعلا كما أمرك.. أنت طلبت فأعطيت ؛ وأمرت بالشكر فهل ستشكر؟ قال تعالى على لسان سليمان عليه السلام :(**ليبلوني أأشكر أم أكفر**) لذلك كان عدد من الصحابة والصالحين يخافون إذا أقبلت النعم، فكان عمر بن الخطاب إذا قدم له طعام شهي يقول نخشى أن نكون من الذين عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا.. (**أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها**) كان يقول: نخشى أن نكون من الذين عجلت لهم طيباتهم.. فالإنسان لا يفرح دائما إذا وجد ما طلب وإذا أعطي ما طلب وافيا مستوفيا، فهذا من الابتلاء والاختبار فلينظر في نفسه بعد ذلك، قال: «**فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا قال: فأي المال أحب إليك؟**».. إذا هو الأول طلب من اللون أحسنه ومن الجسم أحسنه.. انظر الآن إلى المال قال: «**الإبل أو البقر**» إذا هو طلب أنفس الأموال، لأن الإبل قديما كانت أنفس الأموال ، فقد طلب أنفس شيء وأعلى شيء، ليجمع له بين أنفس النعم البدنية وأنفس النعم المالية ، هذا الابتلاء .

قوله :«**الإبل أو البقر**» والشك هنا من أحد الرواة وهو : أبو يحيى إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري ، من الثقات الأثبات، المدني، وهذا من أمانة الراوي، أنه قال: «**الإبل أو البقر**» مع أن الحديث سيتبين منه بعد قليل أنه طلب الإبل لأن الذي بعده طلب البقر ، فالراوي من أمانته قال الإبل أو البقر .

قوله : «**فأعطي ناقة عشراء**» العشراء هي الحامل التي أتى على حملها عشرة أشهر أو ثمانية إلى أن تلد.. يعني أعطي ناقة حاملا أتى على حملها عشرة أشهر أو ثمانية أشهر، ففيها خير كثير، ناقة وفي بطنها حمل، على

وشك الولادة، وهي من أنفس الإبل، فقال: «**بارك الله لك فيها**» في صحيح البخاري بلفظ الخبر «**يبارك لك فيها**» وفيها معنى الدعاء، «**يبارك لك فيها**» بمعنى «**بارك الله لك فيها**» والمَلك دعا له، والمَلك مجاب الدعوة ، ويؤخذ منه أن الإنسان إذا رأى عند أحد ما يسره ؛ يدعو له بالبركة ولا يحسده، يقول له ما شاء الله وتبارك الله وبارك الله لك فيما أعطاك، ولا يحسده أو يتمنى زوال النعمة عنه، بعكس ما يفعله بعض الناس إذا رأى شيئا قال أنت لا تستحق هذا ، ويتكلم بكلام سيء فيه الحسد وفيه الحقد وفيه تمني زوال النعمة ، فالذي يجب على الإنسان أن يدعو لأخيه ، كما جاء في الحديث «**هلا بركت**» تقول لأخيك: بارك الله لك فيما أعطاك الله جل وعلا.. فقال: «**بارك الله لك فيها**» قال: «**فأتى الأقرع**» يعني الملك هذا أتى الأقرع «**فقال: أي شيء أحب إليك؟ فقال: شعر حسن ويذهب عني**» في صحيح مسلم «**ويذهب عني هذا الذي**» يعني زيادة كلمة هذا «**ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس به، فمسحه**» يعني مسح رأسه، رأس الأقرع، فذهب عنه قذره، ذلك من آيات الله «**ذهب عنه قذره وأعطي لونا حسنا**» يعني مباشرة، وهذا يدل على عظم قدرة الله جل وعلا الذي يقول للشيء كن فيكون، ذهب عنه قذره وأعطي الشعر الحسن الذي طلبه.. «**قال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر –أو الإبل-**» في بعض النسخ ليس فيها «**أو الإبل**» «**قال: البقر**» فقط.. «**فأعطي بقرة حاملا**» يعني حبلى، ولم يُقل: حاملة بالتاء لأن الحامل لا يطلق إلا على الأنثى، لا يصح أن تطلق على الذكر «**فقال: بارك الله لك فيها**» قال: «**فأتى الأعمى**» الثالث «**قال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري**» وفي صحيح مسلم زيادة «**أن يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس**» إذا هذا أراد رد البصر .

قوله: «**فمسحه**» يعني مسح على عينيه فرد الله عليه بصره ، هذا يدل على عظيم قدرته جل وعلا الذي يقول للشيء كن فيكون «**قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم**» يعني هذا يدل على تواضع هذا الشخص دون الآخرين الماضيين، الأول طلب أعلى شيء الإبل، الثاني طلب ما بعده البقر، وهذا طلب شيء متواضعا ، الغنم، وهذا أيضا يدل على تواضعه وسكينته لأن أهل الغنم أهل السكينة «**فأعطي شاة والدا**» قيل إن معنى والدا أنها ذات ولد، وقيل بأنها على وشك الولادة، وقيل بأنها علمت بكثرة الولد وكثرة اللبن، معروفة بهذا، فعلى كل حال سواء أعطي شاة على وشك الولادة كما حصل لصاحبيه أو لها ولد الأمر فيه يسير، قال: «**فأنتَج –أو: فأُنتِج- هذان**» أنتَج:

من الرباعي، وقالوا بأن هذه لغة قليلة وبعضهم يقول لغة شاذة ، والمشهور {نُتِج} الثلاثي، وحكى الأخفش اللغتين، يعني الرباعي والثلاثي، «**فأنتج هذان**» يعني تولى صاحب الناقة والبقرة نتاجهما، والناتج للناقة وللبقرة كالقابلة للمرأة وهي التي تتولى الولادة ، فالذي يتولى ولادة أو توليد الناقة والبقرة يسمى ناتجا.. «**فأنتج هذان وولد هذا**» وولّد هذا: يعني تولى ولادها.. ولادة الشاة.. «**فكان لهذا واد من الإبل**» يعني ما يملأ واديا من الإبل «**ولهذا واد من البقر**» كذلك «**ولهذا واد من الغنم**» يعني كل واحد أعطي ما تمناه وأكثر مما تمناه، هو تمنى شاة واحدة وتمنى ناقة واحدة فأعطي ما يملأ الوادي، وهذا من فضل الله جل وعلا، وهذا من الابتلاء العظيم .

قوله: «**ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته**» يعني صورة جسمه وهيئته في الملبس، قالوا: الصورة في الجسم والهيئة في الملبس؛ يعني أتاه في صورة إنسان أبرص مريض، وفي شكل ملبسه الأول فقال له: «**رجل مسكين**» يعني أنا رجل مسكين وفي رواية شيبان «**وابن سبيل**» فعنده ضرورة وحاجة من جهتين: المسكنة وانقطاع الطريق به، يعني هو لو كان غنيا وانقطع به الطريق ؛ فهو «**ابن سبيل**» ويُعطى إذا لم يكن عنده ما يوصله إلى بلده ، فهو عنده مسوغان للعطاء المسكنة وانقطاع السبيل، يعني ذكر له الآن معاذيره «**قد انقطعت بي الحبال**» الحبال: جمع حبل وهي أسباب المعيشة أو أسباب الوصول إلى بلده، الحبل يطلق على السبب والسبب يطلق على الحبل **(من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء)** سورة الحج **(فليمدد بسبب إلى السماء)** يعني بحبل **(إلى السماء)** يعني إلى سقف بيته «**انقطعت بي الحبال**» قيل أسباب المعيشة وقيل الطريق ؛ ولبعض رواة مسلم ـ وهذا ليس في النسخة التي بين أيدينا نبه عليها الحافظ في الفتح ـ : «**الحيال**» جمع حيلة يعني ذكرها بعض الشراح وليست في صحيح مسلم في النسخة التي معنا، لكن هي كما قال الحافظ في بعض رواة مسلم، الحيال جمع حيلة، يعني انقطعت بي الحيلة، غير قادر على مواصلة سفره لانقطاع الأسباب «**قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك**» ومن أجل هذه الكلمة وهذه اللفظة أورد البخاري هذا الحديث مختصرا في كتاب الأيمان والنذور في باب لا يقول ما شاء الله وشئت ، وهذا من فقه البخاري، لا يقول ما شاء الله وشئت ولكن يقول ما شاء الله ثم شئت، واستدل بهذا المقطع «**لا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك**» وهذا مر بنا في حديث قتيلة بنت صيفي لما قال «**وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشئت**»

فنهاهم النبي ﷺ على أن يقولوا ذلك، فالبخاري استفاد من هذا المقطع في الرواية على هذا التبويب في كتاب الأيمان والنذور، قوله «**فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك**» فيه إظهار شدة الحاجة وفيه كذلك الأدب في السؤال، فهذا السائل استجلب وأتى بمسوغات الإعطاء ، انقطاع السبيل ، المسكنة ، الأدب في السؤال، ثم قال له «**أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال**» يعني يبدو أن هذا الأمر كان مشهورا عند الناس، أن هؤلاء كانوا كذا فأصبحوا كذا، تغير حالهم، يعني هذا شيء معروف، أن أحدهم كان أبرصا وشفاه الله وعافاه والآخر كان أقرعا كذلك والآخر كان أعمى كذلك، الناس يرونه، فقال: «**أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن**» تذكيرا له بالنعمة وبما كان له من المرض السابق وبنعمة الله عليه، تذكيرا له لعله يتذكر أو يتعظ «**أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ به في سفري**» البلغة الكفاية، يعني أصل به في سفري، في رواية البخاري «**أتبلغ عليه**» طلب بعيرا واحدا، يعني عنده واد من الإبل ومع ذلك طلب بعيرا واحدا، يعني هذا الرجل الآن جمع في سؤاله عدة أشياء: شدة الحاجة والمسكنة والتذكير له بنعمة الله عليه والتذكير له بما كان عليه من قبل والأدب في السؤال، ومع كل هذا رد عليه هذا الرد الشديد القبيح الرافض لهذا المسكين ببخله، قال: «**الحقوق كثيرة**» فلم ينكر ما كان عليه من المرض ولكن هرب من الإعطاء بهذا الجواب.. حقوق كثيرة كالديون والمصاريف مثلا، يعني مع كل هذا لا يحصل لك بعير، ولا بعير واحد من هذا الوادي الذي فيه الإبل، وهذا من البخل الشديد .

قوله : «**فقال له: كأني أعرفك**» كأني: هذه ليست للشك وإنما هي للتحقيق «**كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا أعطاك الله**» في رواية مسلم «**المال**» وليست في الرواية هنا، في مسلم «**أعطاك الله**» فهذا الاستفهام للتوبيخ والغرض منه تذكير بما كان عليه من قبل، ومع كل هذا التذكير لم يتعظ فقال: «**إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر**» لم ينكر البرص وإنما قال هذا المال أخذته من كبير عن كبير، وهذا يسمونه منصوب بنزع الخافض ؛ من كبير عن كبير، يعني نحن قوم منعمون لنا شرف، توارثنا هذا المال أبا عن جد ، فقال: «**إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت**» هذا مبالغة في الدعاء بلفظ الماضي، صيرك الله إلى ما كنت، ذكره الحافظ في الفتح رحمه الله تعالى.

قوله: «**إن كنت كاذبا**» هذا من باب التنزل ، فلن أنكر عليك ؛ وإنما سأتترك لضميرك أو لنفسك إن كنت كاذبا فسترى ما سيحصل عليك .

قوله: «**وأتى الأقرع في صورته**» في البخاري «**وهيئته**» «**فقال له مثل ما قال لهذا**» يعني للرجل المسكين وابن السبيل.. انقطعت بي الحبال فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك.. «**ورد عليه مثل ما رد عليه**» يعني قال «**الحقوق كثيرة**» فالحقوق كثيرة .

قوله :«**فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت**» قال: «**وأتى الأعمى في صورته**» وفي مسلم «**وهيئته**» فقال: «**رجل مسكين وابن سبيل**» في رواية مسلم «**وابن سبيل**» «**قد انقطعت بي الحبال**» وليست في مسلم «**قد**» «**فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري قال: قد كنت أعمى فرد الله علي بصري**» وفي رواية البخاري «**وفقيرا فقد أغناني**» إذا هذا الان الأعمى اعترف بنعمة الله جل وعلا بقلبه وأثنى على المنعم بها بلسانه ، وصرفها لمستحقه ؛ صرفها في مرضاة الله جل وعلا.. قال: «**قد كنت أعمى فرد الله علي بصري وفقيرا فقد أغناني فخذ ما شئت ودع ما شئت**» فهذا استجمع أركان الشكر الثلاثة : الاعتراف بالنعمة والثناء بها على المنعم وأن تصرف هذه النعمة في مرضاة المنعم سبحانه وتعالى ، فأثنى باللسان وقبل ذلك بالقلب وقال له «**خذ ما شئت ودع ما شئت**» يعني الذي تريده خذه «**فوالله لا أجهدك اليوم شيئا أخذته لله**» يعني لا أشق عليك في رد شيء تأخذه من مالي، يعني خذ الذي تريده واترك ما لا تريد، وفي رواية في صحيح البخاري «**لا أحمدك اليوم شيئا**» يعني لا أطلب منك الحمد، يعني من باب المنة، يعني خذ ولا تشكرني عليه ، وهنا «**لا أجهدك اليوم شيئا أخذته لله**» لفظ البخاري «**لا أحمدك**» أي على ترك شيء من مالي أو لا أطلب منك الحمد لا أمتن عليك، انظر إلى الرد ، ففرق بين هذا وبين السابقين، العجيب أنه في صحيح البخاري في المتن الذي يشرحه الحافظ ابن حجر يشرح هذه اللفظة «**لا أحمدك**» وفي أصل الصحيح الذي وضع مع الفتح «**لا أجهدك**» يعني الحافظ يشرح كلمة لا أحمدك يقول بالمهملة والميم وهؤلاء يضعون في أصل الكتاب لا أجهدك ؛ لأن الحافظ شرح الفتح ولم يضع متنا في شرحه ؛ فهم الذين وضعوا المتن قبل الشرح ، فالحافظ في واد والذي وضع المتن في واد آخر فقال: «**أمسك مالك**» وفي رواية «**أمسك عليك مالك**» وهذا فيه أن الجزاء من جنس العمل، هذا الذي بذل ماله لله عوضه الله خيرا وحفظ عليه ماله ولم يذهب من ماله شيء ولا

حتى شاة واحدة، يعني الأول خائف من ذهاب ناقة أو إبل أو بعير والثاني خائف من ذهاب بقرة وهذا الثالث قال : «**خذ ما شئت ودع ما شئت**» فقال: «**أمسك عليك مالك**» هذا يبين أن الجزاء من جنس العمل كما قا تعالى :(**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم**) قال: «**فإنما ابتليتم**» يعني هذا ابتلاء واختبار «**فقد رضي الله عنك**» إثبات صفة الرضا، من أفعال الله جل وعلا الاختيارية «**وسخط على صاحبيك**» سخط على صاحبيك بكفرهما للنعمة ؛ وهذا هو الشاهد في الباب الذي معنا، رضي الله عنك لأنك شكرت النعمة بلسانك وبقلبك وأنفقت منها فيما يرضي المنعم وسخط على صاحبيك لأنهما جحدا النعمة بقلوبهم وبألسنتهم وبأفعالهم ولم ينفقا منها شيئا في سبيل الله ، ففي قوله : «**وسخط على صاحبيك**» الحذر من عقوبة الله جل وعلا، أن الإنسان يحذر من عقوبة الله، فإن الله جل وعلا شديد ذو انتقام سبحانه وتعالى، قد يمهل الإنسان، يعني أمهل هؤلاء حتى أعطوا كل هذه النعم: المال الحسن والشكل الحسن والجلد الحسن والشعر الحسن والمال الكثير، واد من الإبل واد من البقر، كل هذا استدراج، حتى سخط عليهم وعاقبهم بأن ابتلاهم بذهاب كل هذا ، فالإنسان يحذر من عقوبة الله جل وعلا ولا يُعجب بنفسه وبعمله ويقول إنما أعطاني فإعطاؤه لي دليل على رضاه عني، بل يكون ذلك استدراجا ، والإنسان أيضا يحرص على دوام شكر النعمة، أعطاك نعمة تريد أن تثبت هذه النعمة عليك بدوام شكرها (**لئن شكرتم لأزيدنكم**)..

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الإله فإن الإله شديد النقم

قوله: « **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما معنى: (لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي).

الثالثة: ما معنى قوله: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي).

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة » وقد ذكرنا بعض هذه العبر، وفيها أيضا من العبر الحث على الرفق بالضعفاء والمساكين، أن الإنسان إذا أتاه إنسان ضعيف أو فقير أو مسكين وليس عنده شيء على الأقل يعطيه كلمة طيبة أو يعطيه ولو شيئا يسيرا جدا ، فإن الشيء اليسير لن يؤثر ؛ وفيه الحث على الرفق بالضعفاء والمساكين، وأيضا إكرامهم وإعطائهم ما يطلبون بقدر الإمكان، وأيضا فيه الحذر من كسر قلوب المساكين ، فإن لم تعطه فاصرفه بكلمة طيبة ، وأيضا فيه التحدث بنعمة الله والاعتراف بها،

وأيضا فيه ذم البخل، حيث جر البخل على صاحبه الكذب، جعله يكذب ، قال: هذا المال ورثته كابرا عن كابر.. وهذا كذب، فالبخل جر صاحبه إلى الكذب ثم جره بعد ذلك إلى زوال النعمة ونقمة الله سبحانه وتعالى، فالإنسان يحذر من الشح **«إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن استحلوا أموالهم وسفكوا دماءهم»** أو كما قال ﷺ.. إذا الإنسان يحذر من الشح ويحذر من البخل ويحذر من كفران النعمة ويحرص على دوام النعمة ليدخل مع الشاكرين ولتدوم له هذه النعمة قال تعالى :**(وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)** .